شِفَاءُ الْعَلِيلِ

فِي مَسَائِلِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَالْحِكْمَةِ وَالتَّعْلِيلِ

لِلإِمَامِ

ابْنِ الْقَيِّمِ الْجَوْزِيَّةِ

مكتبة الرياض الحديثة

الطائف - السعودية

على ذنبه بحجته * واللطيفة الثانية أن يعلم ان طلب البصير الصادق سنته لم تبق له حسنة بحال لا نه يسير بين مشاهدة المنة ويطالب عيب النفس والعمل * واللطيفة الثالثة أن مشاهدة العبد الحكم لم يدع له استحسان حسنة ولا استقباح سيئة لصعوده من جميع المعانى الى معنى الحكم * فهذا الكلام الاخير ظاهره يبطل استحسان الحسن واستقباح القبيح والشرائع كلها مبناها على استحسان هذا واستقباح هذا بل مشاهدة الحكم تزيد البصير استحسانا للحسن واستقباحا للقبيح وكلما ازدادت معرفته بالله وأسمائه وصفاته وأمره قوى استحسانه واستقباحه فانه يوافق في ذلك ربه ورسله ومقتضى الاسماء الحسنى والصفات العلى وقد كان شيخ الاسلام في ذلك موافقا للامر وغضبه لله ولحدوده ومحارمه ومقاماته في ذلك شهيرة عند الخاصة والعامة وكلامه المتقدم بين في رسوخ قدمه في استقباح ماقبحه الله واستحسان ماحسنه الله وهو كالمحكم فيه وهذا متشابه فيرد الى محكم كلامه والذى يليق به ماذكره شيخنا أبو العباس أحمد بن ابراهيم الواسطى في شرحه فذكر قاعدة في الفناء والاصطلام فقال الفناء عبارة عن اصطلام العبد لغلبة وجود الحق وقوة العلم به في العبد فيزيد بذلك يقينه به ومعرفته به وبصفاته سبحانه فيذهل بذلك كما يذهل الانسان في أمر عظيم دهمه فانه ربما غاب عن شعوره بما دهمه من الامور المهمة مثاله رجل وقف بين يدى سلطان عظيم قاهر من ملوك الارض فاذهله مايلاحظه من هيبته وسلطانه عن كثير مما يشعر به وهذا تقريب والامر فوق ذلك فكيف بمن اشهده الله عز وجل فردانيته حيث كان ولا شئ معه فرأى الاشياء مواتا لا قوام لها الا بقدرته فشهدها خيالا كالهباء بالنسبة الى وجود الحق تعالى وذلك في البصائر القلبية بالكشف الصحيح بعد التصفية والتدرب في القيام بأعباء الشريعة وحمل أثقالها والتخلق باخلاقها وصفى الله عبده من درنه ويكشف لقلبه فيرى حقائق الاشياء فمتى تجلت على العبد أنوار المشاهدة الحقيقية الروحية الدالة على عظمة الفردانية تلاشى الوجود الذى للعبد واضمحل كما يتلاشى الليل اذا اسفر عليه الصباح ويكون العبد في ذلك آكلا شاربا فلا يظهر عليه شئ مغاير لما إعتاده لكن يزداد إيمانه ويقينه حتى ربما غطى إيمانه عن قلبه كل شئ في أوقات سكره ويبقى وجوده كالخيال قائما بالعبودية في حضرة ذى الجلال وتعود عليه البصائر الصحيحة في معرفة الاشياء عند صحوه ثم يزول عنه عدم التميز ويقوى على حاله فيتصرف وذلك هو البقاء بحيث يتصرف في الاشياء ولا يحجب عنه ماوجده من الايمان والايقان في حال البقاء بل يعود عليه شعوره الاول بوجود آخر يتولاه الله عز وجل مشهده فيه قيامه عليه بتدبيره ويصل الى مقام المراد بعد عبوره على مقام المريد فيصير به يسمع وبه ينطق كما جاء في الحديث الصحيح ووجه آخر وهو أن الفانى في حال فنائه قبل أن يبلغ الى مقام البقاء والصحو والتميز فيستر من قلبه محل الزهد والصبر والورع لا بمعنى أن تلك المقامات ذهبت وارتفع عنها العبد لكن بمعنى أن الشهود ستر محلها من القلب وانطوت واندرجت في ضمن ماوجده اندراج الحال النازل في الحال العالى فصارت فيما وجده الواجد من وجود الحق ضمنا وتبعا وصار القلب مشتغلا بالحال الاعلى عن الحال الادنى بحيث لو فتش قلب العبد لوجد فيه الزهد والورع وحقائق الخوف والرجاء مستورا بامثال الجبال من الاحوال الوجودية التى يضيق القلب عن الاتساع لمجموعها وفي حال البقاء والصحو والتميز تعود عليه تلك المقامات بالله لا بوجود نفسه اذا علمت ذلك انحل اشكال قوله إن مشاهدة العبد لم تدع له استحسان حسنة ولا استقباح سيئة

لصعوده

لو كان الفناء حقا وكما لا فعله النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ولكنه بدعة محدثة أودت بأقوام الى الالحاد والحلول

عنقه قال مامن مولود يولد الافي عنقه ورقة مكتوب فيها شقي أوسعيد وفي الصحيحين عن أبيّ بن كعب قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ان الغلام الذى قتله الخضر طبع يوم طبع كافرا ولو عاش لارهق أبويه طغيانا وكفرا وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت توفي صبي من الانصار فقلت طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه فقال أوغير ذلك ياعائشة ان الله خلق للجنة أهلا خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم ولا يناقض هذا حديث سمرة بن جندب الذى رواه البخارى في صحيحه من رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم أطفال المشركين حول ابراهيم الخليل في الروضة فان الاطفال منقسمون الى شقي وسعيد كالبالغين فالذى رآه حول ابراهيم السعداء من أطفال المسلمين والمشركين وأنكر على عائشة شهادتها للطفل المعين أنه عصفور من عصافير الجنة فاجتمعت هذه الاحاديث والآثار على تقدير رزق العبد وأجله وشقاوته وسعادته وهو في بطن أمه واختلفت في وقت هذا التقدير وهذا تقدير بعد التقدير الاول السابق على خلق السموات والارض وبعد التقدير الذى وقع يوم استخراج الذرية بعد خلق أبيهم آدم ففى حديث ابن مسعود ان هذا التقدير يقع بعد مائة وعشرين يوما من حصول النطفة في الرحم وحديث أنس غير مؤقت وأما حديث حذيفة بن أسيد فقد وقت فيه التقدير باربعين يوما وفي لفظ باربعين ليلة وفي لفظ ثنتين وأربعين ليلة وفي لفظ بثلاث وأربعين ليلة وهو حديث تفرد به مسلم ولم يروه البخارى وكثير من الناس يظن التعارض بين الحديثين ولا تعارض بينهما بحمد الله وان الملك الموكل بالنطفة يكتب مايقدره الله سبحانه على رأس الاربعين الاولى حتى يأخذ في الطور الثانى وهو العلقة واما الملك الذى ينفخ فيه فانما ينفخها بعد الاربعين الثالثة فيؤمر عند نفخ الروح فيه بكتب رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته وهذا تقدير آخر غير التقدير الذى كتبه الملك الموكل بالنطفة ولهذا قال في حديث ابن مسعود ثم يرسل اليه الملك فيؤمر باربع كلمات وأما الملك الموكل بالنطفة فذاك راتب معها ينقلها باذن الله من حال الى حال فيقدر الله سبحانه شأن النطفة حتى تأخذ في مبدأ التخليق وهو العلق ويقدر شأن الروح حين تتعلق بالجسد بعد مائة وعشرين يوما فهو تقدير بعد تقدير فاتفقت أحاديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصدق بعضها بعضا ودلت كلها على إثبات القدر السابق ومراتب التقدير ومايؤتى أحد الا من غلط الفهم أوغلط في الرواية ومتى صحت الرواية وفهمت كما ينبغى تبين أن الامر كله من مشكاة واحدة صادقة متضمنة لنفس الحق وبالله التوفيق

الباب الخامس فى ذكر التقدير الرابع ليلة القدر

قال الله تعالى (حم والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين) وهذه هى ليلة القدر قطعا لقوله تعالى (انا أنزلناه في ليلة القدر) ومن زعم انها ليلة النصف من شعبان فقد غلط قال سفيان عن ابن أبى نجيح عن مجاهد ليلة القدر ليلة الحكم وقال سفيان عن محمد بن سوقة عن سعيد بن جبير يؤذن للحجاج في ليلة القدر فيكتبون باسمائهم وأسماء آبائهم فلا يغادر منهم أحد ولايزاد فيهم ولاينقص منهم وقال ابن علية ثنا ربيعة بن كاثوم قال قال رجل للحسن وأنا أسمع أرأيت ليلة القدر في كل رمضان هى قال نعم والله الذى لاإله الاهو

انها

نبي من الانبياء فانطلق فدخل دارا فتوضأ ودخل المسجد ثم قال اللهم ان كان هذا قد سب أقواما قد سبقت لهم منك حسنى اسخطك سبه اياهم فارنى اليوم آية تكون للمؤمنين آية وقال تخرج بختية من دار بنى فلان لايردها شئ حتى تنتهى اليه ويتفرق الناس وتجعله بين قوائمها وتطأه حتى طفى قال فانا رأيت سعدا يتبعه الناس يقولون استجاب الله لك ياأبا اسحاق استجاب الله لك ياأبا اسحاق وقال تعالى (وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا) أى الله سماكم من قبل القرآن وفي القرآن فسبقت تسمية الحق سبحانه لهم مسلمين قبل اسلامهم وقبل وجودهم وقال تعالى (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون) وقال ابن عباس في رواية الوالبى عنه في قوله (وبشر الذين آمنوا ان لهم قدم صدق عند ربهم) قال سبقت لهم السعادة في الذكر الاول وهذا لايخالف قول من قال انه الاعمال الصالحة التى قدموها ولاقول من قال انه محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فانه سبق لهم من الله في الذكر الاول السعادة بأعمالهم على يد محمد صلى الله عليه وسلم فهو خير تقدم لهم من الله ثم قدمه لهم على يد رسوله ثم يقدمهم عليه يوم لقائه وقد قال تعالى (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) وقد اختلف السلف في هذا الكتاب السابق فقال جمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم لولا قضاء من الله سبق لكم ياأهل بدر في اللوح المحفوظ ان الغنائم حلال لكم لعاقبكم وقال آخرون لولا كتاب من الله سبق انه لايعذب أحدا الا بعد الحجة لعاقبكم وقال آخرون لولا كتاب من الله سبق لاهل بدر أنه مغفور لهم وإن عملوا ماشاؤا لعاقبهم وقال آخرون وهو الصواب لولا كتاب من الله سبق بهذا كله لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم والله أعلم

الباب التاسع فى قوله تعالى إنا كل شئ خلقناه بقدر

قال سفيان عن زياد بن اسماعيل المخزومى ثنا محمد بن عباد بن جعفر ثنا أبوهريرة قال جاء مشركو قريش الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخاصمون في القدر فنزلت هذه الآية (ان المجرمين في ضلال وسعر يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر انا كل شئ خلقناه بقدر رواه مسلم وقد روى الدارقطنى من حديث حبيب بن عمرو الانصارى عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا كان يوم القيامة نادى مناد اين خصماء الله وهم القدرية ولكن حبيب هذا قال الدارقطنى مجهول والحديث مضطرب الاسناد ولايثبت والمخاصمون في القدر نوعان أحدهما من يبطل أمر الله ونهيه بقضائه وقدره كالذين قالوا لوشاء الله ماأشركنا ولا آباؤنا والثانى من ينكر قضاءه وقدره السابق والطائفتان خصماء الله قال عوف من كذب بالقدر فقد كذب بالاسلام ان الله تبارك وتعالى قدر اقدارا وخلق الخلق بقدر وقسم الآجال بقدر وقسم الارزاق بقدر وقسم البلاء بقدر وقسم العافية بقدر وأمر ونهى وقال الامام أحمد القدر قدرة الله واستحسن ابن عقيل هذا الكلام جدا وقال هذا يدل على دقة علم أحمد وتبحره في معرفة أصول الدين وهو كما قال أبو الوفاء فان انكار القدر انكار لقدرة الرب على خلق أعمال العباد وكتابها وتقديرها وسلف القدرية كانوا ينكرون علمه بها وهم الذين اتفق سلف الامة على تكفيرهم وسنذكر ذلك فيما بعد ان شاء الله وفي تفسير على بن أبى طلحة

عن

عن ابن عباس في قوله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء) قال الذين يقولون إن الله على كل شئ قدير وهذا من فقه ابن عباس وعلمه بالتأويل ومعرفته بحقائق الاسماء والصفات فان أكثر أهل الكلام لايوفون هذه الجملة حقها ولو كانوا يقرون بها فمنكرو القدر وخلق أفعال العباد لايقرون بها على وجهها ومنكرو أفعال الرب القائمة به لايقرون بها على وجهها بل يصرحون انه لايقدر على فعل يقوم به ومن لايقر بان الله سبحانه كل يوم هو في شأن يفعل مايشاء لايقر بان الله على كل شئ قدير ومن لايقر بان قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء وانه سبحانه مقلب القلوب حقيقة وانه ان شاء يقيم القلب أقامه وان شاء ان يزيغه أزاغه لايقر بان الله على كل شئ قدير ومن لايقر بانه استوى على عرشه بعدأن خلق السموات والارض وانه ينزل كل ليلة الى سماء الدنيا يقول من يسألني فاعطيه من يستغفرني فاغفرله وانه نزل الى الشجرة فكلم موسى كلمه منها وانه ينزل الى الارض قبل يوم القيامة حين تخلو من سكانها وانه يجيء يوم القيامة فيفصل بين عباده وانه يتجلى لهم يضحك وانه يريهم نفسه المقدسة وانه يضع رجله على النار فيضيق بها أهلها وينزوى بعضها الى بعض الى غير ذلك من شؤنه وأفعاله التى من لم يقربها لم يقربأنه على كل شئ قدير فيالها كلمة من حبر الامة وترجمان القرآن وقد كان ابن عباس شديدا على القدرية وكذلك الصحابة كما سنذكر ذلك ان شاء الله تعالى

الباب العاشر فى مراتب القضاء والقدر التى من لم يؤمن بها لم يؤمن بالقضاء والقدر

وهى أربع مراتب ﴿المرتبة الاولى﴾ علم الرب سبحانه بالاشياء قبل كونها ﴿المرتبة الثانية﴾ كتابته لها قبل كونها ﴿المرتبة الثالثة﴾ مشيئته لها ﴿الرابعة﴾ خلقه لها * فاما المرتبة الاولى وهى العلم السابق فقد اتفق عليه الرسل من أولهم الى خاتمهم واتفق عليه جميع الصحابة ومن تبعهم من الامة وخالفهم مجوس الامة وكتابته السابقة تدل على علمه بها قبل كونها وقد قال تعالى (وإذ قال ربك للملائكة انى جاعل في الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم مالاتعلمون) قال مجاهد علم من ابليس المعصية وخلقه لها وقال قتادة كان في علمه انه سيكون من تلك الخليقة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة وقال ابن مسعود أعلم مالاتعلمون من ابليس وقال مجاهد أيضا علم من ابليس انه لايسجد لآدم وقال تعالى (ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافي الارحام وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا وماتدرى نفس باى أرض تموت إن الله عليم خبير) * وفي المسند من حديث لقيط بن عامر عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال يارسول الله ماعندك من علم الغيب فقال ضن ربك بمفاتيح خمس من الغيب لايعلمها الا الله وأشار بيده فقلت ماهن قال علم المنية قد علم متى منية أحدكم ولاتعلمونه وعلم المنى حين يكون في الرحم قدعلمه ولا تعلمونه وعلم مافى غد قد علم ماأنت طاعم ولاتعلمه وعلم يوم الغيث يشرق عليكم مشفقين فيظل يضحك قد علم أن غوثكم الى قريب قال لقيط لن نعدم من رب يضحك خيرا وعلم يوم الساعة وقد تقدم حديث على المتفق على صحته مامنكم من أحد مامن نفس منفوسة الاوقد علم مكانها من الجنة أو النار وقال البزار حدثنا محمد بن عمر بن هياج الكوفي ثنا عبيدالله بن موسى ثنا فضيل بن مرزوق عن عطية عن

يشرف بالفاء على عليكم